في ذلك الصباح الحزيراني التعس، يقف الراوي، مهموماً خلف نافذة بيته، فتبدو له الشمس «مجرد قرص من النار يلتهب تحت قبة من الفراغ المروع»[١٦٧]، غير ان رؤيته لأم سعد، وهي قادمة من «رأس الطريق المحاط بأشجار الزيتون»[١٦٨] تجعله لا يرى في ذلك الفراغ غير خلفية صامتة لـ «شيء ينبثق من رحم الارض»[١٦٩] ذلك لأن أم سعد كانت «تمشي بقامتها العالية كرمح يحمله قدر خفي... تصعد من قلب الارض وكأنها ترتقي سلماً لا نهاية له»[١٧٠]. ففي مقابل يأس الراوي وهبوطه، وإحباطه المقيم الذي جعله يطوي نفسه كالراية المهزومة، ويرى الى الاشياء على النحو الذي رأيناه، تبدو أم سعد شامخة وصاعدة، فتضفي على المشهد المأساوي للمحيط الخارجي للبيت، كما يتبدى في عيون الراوي، جلال التحول وانبثاق التجاوز... وإذ يلتفت الراوي الى أشياء بيته تبدو، في نظره، كئيبة مصبوغة بالتفاهة: «كنت أسمع هدير الحرب من الراديو، ومنه سمعت صمت المقاتلين، وهو يتكىء على الطاولة ورائي ينوح مثل أرملة، ويطلي بصوته المهزوم كل أشياء الغرفة بالتفاهة: المكتبة، والمقعد والزوجة، والاطفال وصحن الطعام، وأحلام المستقبل، ويجعل الحبر بلا لون»[١٧١]. غير ان دخول أم سعد الى البيت، يعطي للبيت وأشيائه مغزى آخر، ويضفي على رؤية الراوي لبيته، بعداً جديداً: «دخلت أم سعد ففرحت في الغرفة رائحة الريف»[١٧٢]. ولا يبقى المشهد مسكوناً ببعد واحد، فثمة صمود وأمل، في مواجهة التعاسة واليأس: «حين تدق باب البيت وتضع أشياءها الفقيرة في المدخل تفوح في رأسي رائحة المخيمات بتعاستها وصمودها العريق، وببؤسها وآمالها»[١٧٣]. وهكذا، بدخول أم سعد، يعود الراوي الى شيء من علاقة الالفة التي تصله بغرفته وأشياء بيته، فتبدو الغرفة كما كانت عليه «قبل عشرة أيام فقط»[١٧٤] أي قبل الحرب ووقوع الهزيمة، فأم سعد، بحضورها، في بيت المثقف الثوري، بما ينطوي عليه هذا الحضور من مدلولات، تعطي الأمل العميق بتجاوز الهزيمة. وفي هذا الضوء تنعدم علاقة الالفة بين المثقف الثوري، ومكبتة، وأشياء بيته، بل وأهل بيته (زوجته) في غياب علاقة التوحد مع «أم سعد» بكل ما ترمز اليه، ولا تحضر هذه العلاقة الا بحضورها «وقامت، ففاض في الغرفة مناخ من البساطة، بدت الاشياء أكثر ألفة، ورأيت فيها بيوت الغبسية مرة أخرى»[١٧٥].

وتبدو هذه العلاقة التجاوبية مع المكان، دالة على التجاوب الرؤيوي، والتفاعل القائم بين المثقف الثوري من جهة، وأم سعد من جهة أخرى، فأم سعد، أيضاً، تحس بالألفة، في بيت الراوي الذي اعتادت المجيء اليه كل يوم ثلاثاء، ومنذ سنوات، فهي «تنظر الى الاشياء شاعرة حتى أعماقها بحصتها فيها، تنظر اليّ كما لأبنها»[١٧٦]. وتتجول أم سعد في بيت الراوي، كما لو كان بيتها تماماً، تذهب الى الشرفة، وتعبر الممر، وتدخل المطبخ، وتخرج الى الحديقة، قرب الباب كي تغرس عود الدالية، وتعود، تعبر الغرفة، وتتكىء على حاجز الشرفة، و«تنظر الى حقول الزيتون المطلة على مدارج التلّة»[١٧٧]، ويلحق بها الراوي، يسألها ويحاورها في حديث متواصل لا ينقطع، وفي تجاوب رؤيوي لا يخدش.

وعلى الرغم من المواصفات الهندسية التي للبيت، والتي تشي بتناقض مع بيت أم سعد، كما هو حال عمارة وسط المدينة، فإن هذه المواصفات تفقد دلالتها التناقضية، مع حضور التجاوب في الرؤية والموقف، مما يؤكد ان السمات الطوبوغرافية والخصائص الموضوعية للأمكنة لا تنطوي على أية دلالة بمعزل عن المشاعر الانسانية، والرؤية للعالم التي تحكم، وتحدد، علاقة الانسان مع نفسه، ومع الآخرين، ومع العالم. إن حضور أم سعد الدائم في بيت الراوي لا يجعل من هذا البيت مكاناً لاجترار عذابات المنفى بقدر ما يجعل منه حيزاً مكانياً، في المنفى، يتيح للمثقف الثوري ان ينهض بدوره